

ويعلل سببويه المضارمة في حالتي التقريب من الزاي ، أو ابدال الصاد زايًا بما نسميه « الانسجام الصوتي » ، فيقول : « وانما دعاهم الى ان يقربوها ويبدلوها ان يكون عملهم من وجه واحد، وليستعملوا السننهم في ضرب واحد ، اذ لم يصلوا الى الادغام ( الذي هو اقصى حالات التاثر بين الاصوات المتجاورة ) ولم يجسروا على ابدال الدال صادا ، لانها ليست بزيادة كالتاء في الفعل ( اي ان الصوت الاول هو الذي تآثر بالتاني وهو التاثر التخلفي ) .

وإذا كان اللغويون المحدثون يشترطون لتأثر احد الصوتين بالآخر ان يكون التجاور تاما بان يكون الاول مشكلا بالسكون (7) . فان سببويه قد نص على ذلك عندما قال : « فاما الذي يضارع به الحرف من مخرجه فالصاد الساكنة ، اذا كانت بعدها الدال » (26/2) كما يتضح ذلك من امثلة : التصدير ، اصدر ، الفصد ، اشدق ، اشدر (اي اجدر) ، اجدمعوا ، واجدروا ( اي اجتمعوا ، واجتروا ) .

وان كان سببويه قد خالف ذلك عندما قال في موضع آخر : ان في (صدر) تقريبا من الزاي (259/2) . مع ان الفاصل هنا حركة .

ولكن شرط الابدال عند سببويه الاتحرك الصاد، فقد قال بعد ان ذكر ان بعض العرب يبدل الصاد في التصدير والفصد زايًا خالصة : « فان تحركت الصاد لم تبدل ، لانه قد وقع بينهما شيء » بمعنى الحركة الفاصلة بين الحرفين .

وهذا يدل على لهم سببويه لمعنى التجاور ، وعلى انه يرى ان الحركة تقع بعد الحرف .

ولكن هناك استثناء من شرط سكون الحرف الاول في حالة المضارمة ، اذ لاحظ سببويه ان العرب قد يضارعون في حالة الفصل بالحركة ، نحو صدقت . ثم قال « والبيان فيها احسن » (27/2) واورد استثناء آخر من شرط التجاور اذ قال : « وربما ضارحوا بها وهي بعيدة نحو مصادر ، والصراط ، لان الطاء كالدال » ( يظن سببويه ان المضارمة خاصة بالدال ، ولهذا يشبه بها الطاء حين وجد مضارمة في الصراط ) ثم اورد سببويه ثلاثة امثلة اخرى تمت فيها المضارمة مع التجاور التام

1 - اشدق ، حيث تجهر الشين ، وهذا معنى قول سببويه « فتضارع بها الزاي » وسبب الجهر

تناول سببويه في اكثر من موضع من كتابه ، ما يحدث من تقريب بين الاصوات المتجاورة سمي هذه الظاهرة المضارمة ( : 26/2 ) وسماها التقريب ايضا (259/2، 27) كما تناول اقصى درجات التاثر بين المتجاورين ، أي الادغام (2/404 - 26) .

وتتضح نظرية التماثل عند سببويه في الباب الذي عقده تحت عنوان : « هذا باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه ، والحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه » (2/26)

ويعني سببويه بالحرف الذي يضارع به حرف من موضعه : « الصاد الساكنة اذا كانت بعدها الدال ، وذلك نحو : مصدر ، واصدر ، والتصدير »

وبعد ان يبين سببويه ان ادغام الصاد في الدال، او ابدال الدال حرفا يناسب الصاد كالطاء غير ممكن في هذه الامثلة ، يفسر ما حدث في هذه الامثلة بانه مضارمة الصاد بالزاي ، أي تقريبا منها ، لان الزاي مجبورة كالدال ، فيتحقق بهذا الانسجام بين المتجاورين . وقد فسر سببويه هذه المضارمة في موضع آخر من كتابه (259/2) اذ قال ، وهو يعلل امالة الالف الى الياء بسبب الكسرة ، بانها تقرب بين الحرفين : « ارادوا ان يقربوها منها كما قربوا في الادغام الصاد من الزاي حين قالوا صدر ، فقربها من الزاي والصاد التماس الخفة ، لان الصاد قريبة من الدال فقربها من اشبه الحروف من موضعها بالدال » .

ولكن سببويه في المثال الاخير : صدر ، لم يقيد الصاد بانها ساكنة ، كما جاء في النص الذي عالج فيه المضارمة (26/2) .

ومما يؤيد ان ما حدث في الصاد هو تقريبا من الزاي قول سببويه « ولم يبدلوها زايًا خالصة كراهية الاجحاف بها للاطباق » ثم يعقب سببويه بانه سمع العرب الفصحاء يجعلون الصاد زايًا خالصة أي بدون طباق ، وينظر لذلك بدهاب الاطباق في الادغام ، ويعني بذلك قولهم « انحصالما ، أي انحص سالما » (2/418)

أي انهم يقولون في التصدير : التزدير ، وفي الفصد ، الفزد ، وفي اصدرت : ازدرت .

(7) الدكتور ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية : 131 .

اي ان السين لما جاورت واحدا من هذه الاصوات المستعلية نالرت به ففخمت ، وحين تفخم السين تبدل صادا . ولكن سيبويه يبين ان « الاصرف الاكثر الاجود في كلامهم ترك السين على حالها وانما يقولها من العرب بنو العنبر » (428/2).

وفي ضوء المضارمة كذلك يفسر سيبويه قول العرب : ست ( اي العدد 6 ) ويذكر ان اصلها سدس . ويبين ان العرب لم يدغموا الدال : « كرهوا ادغام الدال فيزداد الحرف سينا ، فتلتقى السينات ، ولم تكن السين لتدغم في الدال . فابدلوا مكان السين اشبه الحروف بها من موضع الدال ، ليلا يصيروا الى اقل مما فروا منه اذا ادغموا ، وذلك الحرف التاء ، كانه قال سدت ، ثم ادغم الدال في التاء » (428/2)

وبدل على تمق سيبويه في فهم سر المضارمة واستخدامها في تفسير التغير الصوتي قوله في تعليل قول بعض العرب : يستيع بدل يستطيع : « ان شئت قلت : ابدلوا التاء مكان الطاء ليكون ما بعد السين مهموسا مثلها ، كما قالوا : اذنان ( اصلها : اذنان ) ليكون ما بعدها (الزاي) مجهورا » (429/2) .

اما المضارمة في الحركات (اصوات اللين) فتبدو عند سيبويه فيما يلي :

1 - الامالة (259/2) قال : « فالالف تمال اذا كان بعدها حرف مكسورة ، وذلك قولك هابد ، وعالم ومساجد، ومغايح، وعذافر، وهابيل . وانما امالوها للكسرة التي بعدها ، ارادوا ان يقرئوها منها كما قرئوا في الادغام الصاد من الزاي » اي ان الغرض من الامالة هو الانسجام بين اصوات اللين .

ويؤيد ذلك قوله في باب ما تقلب فيه الواو ياء اذا سكنت وقبلها كسرة ( نحو ميزان وميماد ) « فكان العمل من وجه واحد اخف عليهم ( وجسود حركة الامالة بعد الكسرة ) . . كما انهم اذا ادنوا الحرف من الحرف كان اخف عليهم ، نحو قولهم : اذنان واصطبر » (357/2)

2 - في تفسير باب فعل يفعل (مثل فتح يفتح) الذي ورد في الافعال التي عينها او لامها من حروف الحلق ( ا - ه - ع - ح - غ - خ ) قال : « وانما فتحوا هذه الحروف لانها سفلت في الحلق ، فكرهوا ان يتناولوا حركة ما قبلها بحركة ما ارتفع من الحروف ، فجملوا من الحرف الذي في حيزها

هنا ان السين وهي صوت مهموس جاورت الدال ، وهي صوت مجهور ، فجهر بها لتحقيق الانسجام والتقارب ، وحين يجهر بالسين تقترب من الزاي . . ولما كانت الزاي من مخرج غير مخرج السين فقد عبر عن ذلك سيبويه في عنوان هذا الباب ، حين قال « والحرف ( السين ) الذي يضارع به ذلك الحرف ( الزاي ) وليس من موضعه »

2 - اجدر ، حيث تنطق الجيم قريبة من الزاي ، اي جيما شديدة التمطيش ، وكتبت عند سيبويه : اشدر ولما كانت الجيم والدال من الاصوات المجهورة ولم يجد سيبويه تفسيراً لهذه المضارمة ، ظل ذلك بالقياس على المضارمة مع السين في اشدر ، اذ قال « وانما حملهم على ذلك انها ( الجيم ) من موضع حرف قد قرب من الزاي » يعني السين في اشدر .

3 - اجدموا اي اجتمعوا ، واجدروا ، اي اجترعوا . والذي حدث هنا ان التاء وهي صوت مهموس جاورت الجيم ، وهي صوت مجهور ، فتأثرت بها تأثراً تقديمياً ( الثاني بالاول ) فجهر بها اي ابدلت دالا .

وفي موضع آخر يفسر سيبويه ، في ضوء المضارمة والتقريب ، قول العرب فيما كان على وزن مفتعل من الصبر : مصطبر : فيقول « فابدلوا مكانها اشبه الحروف بالصاد ، وهي الطاء ، ليستعملوا السنهم في ضرب واحد من الحروف ، وليكون عملهم من وجه واحد ، اذ لم يصلوا الى الادغام » (421/2) ومعنى قوله « ليستعملوا السنهم في ضرب واحد » ان نطق الصاد وهي مطبقة لا يلائم نطق التاء ، وهي مرفقة فابدلوا مكان التاء طاء للانسجام بين الصوتين المطبقين .

ومن المضارمة عند سيبويه ايضا : قلب السين صادا اذا كانت بعدها القاف في كلمة واحدة ، عند بني العنبر ، ويعتل ذلك بقوله : « ابدلوا من موضع السين اشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد ، وهي الصاد » (427/2) ثم قاس على ذلك الغاء والعين « لانها بمنزلة القاف ، وهما من حروف الحلق بمنزلة القاف من حروف الفم ، وتقربهما من الفم تقرب القاف من الحلق » ثم قاس الطاء على القاف ، لانها في التصعد مثل القاف (428/2).

وهو الالف « (253/2) أي ان الفتح لمناسبة حروف الحلق لان الفتحة بمعنى الالف ، ومخرج الالف (عنده) من أقصى الحلق مع الهمزة والهاء (2/405) وهكذا نجد ال (Assimilation) وال (Vowel harmony) أي التماثل او المضارعة او التقريب ، والانسجام بين اصوات اللين ، واضحة جدا في فكر سيبويه (ت 180 هـ) .

#### الادغام الاصغر والتقريب عند ابن جنى

عالج ابن جنى ظاهرة «التماثل او المضارعة» تحت عنوان «الادغام الاصغر» وتعريفه وامثله تنطبق على المضارعة عند سيبويه : يقول ابن جنى في الخصائص (141/2) في تعريفه « واما الادغام الاصغر فهو تقريب الحرف من الحرف وادناؤه منه ، من غير ادغام يكون هنالك ، وهو ضروب .»

وقد اورد ابن جنى من ضروب هذا التقريب : قلب تاء الافتعال طاء اذا كانت الفاء صاد او ضادا او طاء او ظاء (141/2) وقلبها دالا اذا كانت الفاء زاي او دالا او ذالا (142/2) وقلب السين صاد اذا وقعت قبل الحرف المستعمل فتقرب منه (142/2) واورد ايضا تقريب الصاد من الزاي لجاورة الدال ، في مصدر، والتصدير، وقول العرب في مثل « لم يحرم من فزده» اي من فصد له . ويقدم تفسيراً علمياً في ضوء التقريب ، او الادغام الاصغر ، فيقول في هذا المثل « اصله : فصد له ، ثم اسكنت العين ، على قولهم في ضرب : ضرب (بتسكين الراء بدل خفضها) وقوله ( القطامي ) :

ونفحوا في مدائهم لطاروا

فصار تقديره : فصدله ، فلما سكنت الصاد فضممت به ، وجاورت الصاد - وهي مهموسة - الدال - وهي مجهورة - قربت منها بان اشمت شيئا من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر (الخصائص: 144/2) .

ولو ان لغويا محدثا فسر التماثل في هذه الحالة لما خرج مما قاله ابن جنى في هذا التفسير.

كذلك يفسر ابن جنى ما فسر سيبويه من قبل قول العرب : ست ( العدد 6) واصلها سدس (الخصائص : 145/2) .

ولم ينس ابن جنى التقريب في الحركات، ونجد من ذلك عنده الامالة « انما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت» اي الفتحة الى الكسرة (141/2) من ذلك عنده الامالة « انما وقعت في الكلام لتقريب العرب : شمير وبعير ورغيف ، بكسر او اللها (143/2) . وقولهم : فعل يفعل ( باب فتح ) مما عينه او لانه حرف حلقي ، نحو سال يسأل وقوا يقرأ .. » وذلك انهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق ، لما كان موضعاً منه مخرج الالف التي منها الفتحة « (143/2) .

وقد تحدث اللغويون واصحاب المعجمات عن المضاربة والتقريب ، وفسروا في ضوءها كثيرا من التطور الصوتي ، ولكن ما قالوه لم يخرج عما وضع أسسه ، وبين حدوده ، سيبويه وابن جنى . اليس لنا ان نقول ان علماء الاصوات العرب القدماء قد سبقوا اللغويين المحدثين في كشف اسرار التفاعل بين الاصوات المتجاورة ، وابتكار نظرية التماثل Assimilation ؟ بلى .

# حَاجَتُنَا إِلَى التَّعَبُّةِ الْعِلْمِيَّةِ

الدكتور محمد يحيى الهاشمي

رئيس جمعية الأبحاث العلمية  
حلب ( سوريا )

كان القدماء فيما مضى يؤلهون القوة الطافية الجبارة ، لانهم كانوا حيارى لا يدرون من امرهم شيئا ولا يجدون من علمهم مخرجا ، فكان القدماء معذورين في تلك الاتكالية المقيمة ، بل العائقة ايضا في التقدم والاستفادة من مرافق الحياة . اما نحن فغير معذورين في مثل هذا العقم وهذا الخضوع الاعمى . وان السر الحقيقي في هذا التقدم بين الامم هو في التعاون والتكاتف للبحث والتنقيب . تعاونت الامم فتقدمت ولا يمكننا التقدم الا بضم جهودنا الى بعضها بعضا ، وفتح العقول والافئدة للعلوم النافعة وتطبيقاتها العملية ، فالعلم لا يدرس في المعاهد ، والجامعات نحسب ، بل في المخابر والمصانع والمعامل . ومن ثم انه تلك الانقلابات الحيوية التي نجدها في عالم الطب والزراعة والكيمياء والميكانيك والكهرباء والطاقات المختلفة ، فالامم التي كانت في فقر مدقع من جراء ضعف اراضيها في قوة الانبات وصناعاتها متاخرة من جراء قلة مواد الخام والخبرة الفنية ، فبفضل تطبيق العلم على العمل بدلت معالم اراضيها من ضعف في الانبات الى قوة فائقة في ذلك ، فوجدت لها منبعا

في عام 1954 القيت في قاعة دار الكتب الوطنية في حلب محاضرة بعنوان « لماذا تخلف العرب عن الكشوف العلمية ؟ » ، وامتدتها القاهها مع بعض تمديلات على مدرج الجامعة اللبنانية في بيروت في عام 1956 ، ونوهت عنها في المحاضرة التي كنت أقيتها في نفس العام على مدرج الجامعة السورية في دمشق عن الفوسفات ، وقد نشرت نفس الموضوع في اللسان العربي ( عدد 5 ، 1967 ) بعنوان « العرب والكشوف العلمية » ، ولا بد لي هنا من التنبيه الى حاجتنا للتعبة العلمية لمعالجة تخلفنا عن الامم الراقية ، لان هذا التخلف او بالاحرى التخالذ الذي يلينا به جعل الشقة بيننا وبين المتقدمين بعيدة جدا (1) ، قد نشعر بذلك شعورا صادقا ، ولكننا لا نجد الحاجة الضرورية لتلافي الاخطاء الماضية . وان مجازاة الامم المذكورة في هذه الميادين الحيوية والفعالة لا ياتي بالكلام ولا بالتمني ، بل لا بد من العمل الشمر المنتظم والتعاون والتكاتف . ان عهد المتعة والتفديس ، والاتكالية السلبية قد مضى ، واتي عهد الفكر الصائب والتنفيذ المجدي ، متكافئين لا متخالدين .

(1) لاجل ضرب مثل على تأخرنا وتقدم غيرها من الامم ، فانه تابني في كل اسبوعين جريدة الكيمياء Chemikerzeitung التي تصدر في هايدلبرغ ولى كل عدد اخبار عن اكتشافات ملن عنها واكتشافات تغطي بزموز فقط ، ولاجل معرفتها يلزم الاتصال بالبيئات اللازمة لكشف النقاب عنها بشروط خاصة ، واتي لا اكاد اطلع على الكشوف الملن عنها فقط ، حتى تفاجئني كشوف جديدة في العدد الجديد ، ونحن منذ الاجيال لم نسجل ولو كشفا واحدا له قيمة . هذا في فرع من فروع العلم فقط .

ثم الى وضع برامج مدروسة مفصلة بطرائق الاستنباط والاستغلال والتصنيع .

لم تمد الحياة تطبيق التواني ولم يعد لتخلف مكان فيها . ولا يزال العلم في حاجة الى المزيد من التقدير ، ولو انه اعطي من الرعاية ما يستحقه لانادات الامة منه خيرا كثيرا ، ولو امكن استخدام العلم في مشروعاتنا لارتفع الانتاج وقلت التكاليف وارتفع مستوى الحياة بين افراد الشعب وكان التقدم العلمي المستمر يخلق ثروات اقتصادية ، ولذلك ينبغي تتبع التقدم في العلم والتصرف على موارد الثروة عندنا ، فالعلم تنفق على البحث العلمي بسخاء ، والغريبون مع كثرة المنتسبين للعلم يحفظون كرامة العالم ويسعون دوما لرفع مكانته وتقديمه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . اما نحن فان غايتنا من العلم غاية محدودة ، وهي اما التوظيف او معاطاة بعض المهن المحدودة مثل الطب والصيدلة او غير ذلك للكسب الفردي ، لا لازدياد الثروة القومية واذا حدث ذلك فانه بالنسبة قليل . ونسبي علمنا بالعلم التجاري ، والتجاري الذي يريد الثروة القومية ويؤمن الربح الفردي ايضا . اننا نقول ان فلانا موفق في علمه ومقياس ذلك انه جنى ثروة فردية دون ان يتقدم في اختصاصه ، كما اننا نقول ان فلانا فاشل في عمله وان كان من المساهمين في نهضة صناعية زادت في الثروة القومية ، لانه لم يجن ثروة خاصة . ان الصناعات المحدودة مثل معامل الغزل والنسيج او معامل الاسمنت او الزجاج او غيرها هي ثمرة من ثمرات المتخصصين ، ولو اننا اعطينا لهؤلاء المتخصصين ما يليق بهم من العون المادي او المعنوي لكان للنهضة الصناعية شان غير شأنها .

ان العلم والتطبيق يحتاجان دوما الى المران والممارسة وان اصحاب الشركات ورجال الاموال ، وجميع الموجهين للمقدرات في الاقطار العربية كلهما مسؤولون عن صقل مواهب الاختصاص ، ولا يخفى ان الاشراك في العمل يكون السبب في صقل المواهب وشحذ القابلية ورفع السوية وجعل البصر حادا ، كما ان الاهمال يعمل مكس ذلك فانه يقتل نواة القابلية في الصميم . يجب علينا الافتخار بقابليات فلة في البلاد ، كما علينا اذا وجدنا من هم ضعفاء في اختصاصهم القيام بتنمية ذلك والابتعاد عن الغلو في ادعاء العلم وزيادة التقدير .

جديدا للخامات الصناعية وسوقا للمنتوجات . ان التخطيط العلمي يلزم ان يمشي مع التخطيط الاقتصادي جنباً الى جنب ، لاننا متى ما علمنا ان من ثمرات العلم النتائج الاقتصادية اقبلنا عليه الاقبال الكلي ، فمن الضروري تنظيم هذا التخطيط العلمي وجعله يسير مع التقدم الصناعي والزراحي جنباً الى جنب ، فالعلم يلزم ان يكون هو المسيطر في حل مشاكلنا في الحرب والسلام على السواء ، لان هذه الامور لا تزدهر الا بالعلم وان الصناعات التي لا تعتمد على ذلك بادت امام الصناعات الحديثة التي اتخذت من العلم هاديا واماما .

نحن نضجع كثيرا من الاوقات في البحث عن الالفاظ بدلا من الترجمة راسا من قبل اختصاصيين في الموضوع ممن عرفوا لغتهم جيدا مع فتح المختبرات للتجارب والاستفادة العملية . ولو ان سلفنا في العهد العباسي عمل ما عملنا لما ترك لنا تراثا شامخا ادرك العالم المتحدث اليوم اهميته وقيمته . ولو ان اليابان لم يقتبس علوم الغرب وصناعاتها راسا وسلسك سلوكنا لبقي حتى اليوم يبحث عن الالفاظ الجوفاء وكان من المتخلفين مثلنا ، ولعله بقي في مؤخرة الامم بدلا من ان يكون في مقدمتها . ان من يريد تعلم السباحة لا يضيع اوقاته في معرفة الالفاظ المتعلقة في السباحة بل عند دراسة قوانينها ان يشديه القول على العمل راسا . حتى اننا يلزم لمعرفة القانون العلمي وضع التدرج المختلفة التي توصلنا من الجزئي الى الكلي .

ان هناك الكثيرين من المدرسين في الاعدادي والثانوي والجامعي مع الاسف يعتمدون على التجارب ، حتى ان بعض اساتذة الكيمياء يترفعون عن مسك انبوب الاختبار بايديهم بل يكتفون ببعض التجارب من قبل المساعد او الطالب بالذات ، ويجدون انفسهم ارفع من ان يختبروا بذاتهم ويشقلون طلابهم بمعلومات نظرية معقدة هم انفسهم يبيدون عن فهمها . واني شاهدت في الغرب اساتذة كبارا ممن نالوا جائزة نوبل او ان تلامذتهم نالوا هذه الجائزة لا يترفعون عن عمل التجارب بالذات .

نحن اليوم في سبيل نهضة شاملة ، وما زالت في هذه البلاد امكانيات كثيرة من خامات معدنية غير مستثمرة وارض غير مزروعة على النمط العلمي الحديث ومصادر للطاقة والقوة . وكل هذه الامور تحتاج الى عمليات حصر وتقص وتنظيم وتخطيط ،